

الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ «أَبُو ذَرٍّ الْغَفَارِيُّ» رضي الله عنه

الرَّجُلُ الصَّالِحُ

(... - 505هـ)

الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ «أَبُو ذَرٍّ الْغَفَارِيُّ» رضي الله عنه، الرَّجُلُ الصَّالِحُ، الَّذِي مَشَى وَحْدَهُ، وَمَاتَ وَحْدَهُ، وَيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحْدَهُ، تَمَيِّزاً لَهُ بِمَا حَبَاهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ فَضْلِ وَإِكْرَامٍ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَالَّذِي لَمْ يَخْشَ بِاللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا، فَجَهَرَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كَانَ، وَدَافَعَ عَنْهُ بِلسَانِهِ الْبِتَّارِ أَمَامَ الْحُكَّامِ وَالْأُمَرَاءِ الَّذِينَ حَادُوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَهَضَمُوا حَقُوقَ الْأُمَّةِ، وَعَكَفُوا عَلَى بَدْعٍ وَضَلَالَاتٍ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ، وَسَنُّوا لِأَنْفُسِهِمْ أُمُوراً مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَبَعَدُوا عَنْ جَوْهَرِ الْإِسْلَامِ، وَعَنْ مَنَاطِ الْخَيْرِيَّةِ الَّتِي مَيَّزَ اللَّهُ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الرَّاشِدَةَ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ أَوْ اللاحقة.

أَجَلٌ، كَانَ «أَبُو ذَرٍّ» صَوْتاً يَصْدَحُ دَائِماً بِالْحَقِّ، وَيَدْعُو إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَحْضُرُ عَلَى التَّمَسُّكِ بِمَعَالِمِ الْحَيَاةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَأَوْضَحَتْهَا سُنَّةُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صلوات الله عليه، وَكَذَلِكَ يَدْعُو إِلَى نَبْذِ مَظَاهِرِ التَّرَفِ وَالْبَدْخِ

والإنفاقِ الجائرِ، خاصَّةً إذا كان الأمرُ فيه تعدُّ على حقوقِ الأُمَّةِ، أو فيه إجحافٌ بنصيبِ الفقراءِ والمُحتاجينِ في بيتِ المالِ، أو في الخزينةِ العامَّةِ للدولةِ.

وكانَ «أبا ذرٍّ» رجلٌ خلقه اللهُ ليتمرَّدَ على الباطلِ أينما كانَ، فهو في جاهليَّتهِ تمرَّدَ على عبادةِ قومه، ولمَّ يسجدْ لصنمٍ قطُّ، وكانَ يؤمنُ باللهِ واحدٍ في السَّماءِ خالقِ كلِّ شيءٍ، ومُدبِّرِ كلِّ أمرٍ، وهو عندما أسلمَ جهرَ من فوره بإسلامِهِ، مُتمرِّداً على الواقعِ الأليمِ، والوضعِ الَّذي فرضه أربابُ الكُفرِ القرشيونَ على الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ وهي في بدايتها، وأعلنَ إيمانه على الملأِ غيرَ مُكترثٍ لما سيلقاهُ منهم من رَفْضٍ واستنكارٍ وتَنكِيلٍ، وذاقَ حلاوةَ الأذى والعذابِ في سبيلِ اللهِ حفاظاً على مبادئِهِ، وتلذُّذاً بالحقِّ الَّذي آمنَ به، وانعقدَ عليه قلبُهُ ولسانهُ.

ومن ثمَّ، بعدَ إسلامِهِ، خرجَ من مَكَّةَ راشداً مُستنيراً بدعواتِ الرِّسولِ الكريمِ ﷺ له، وسدَّدَ اللهُ خُطاهُ، وباركَ له في مسعاها، ورزقه الحكمةَ وحُسنَ الخِطابِ، فدعا قومه إلى اللهِ على بصيرةٍ، فلاقتُ دعوتهُ بينَ قومه صدىً واسعاً، وإقبالاً عظيماً، فوفدَ إلى النَّبيِّ ﷺ في المدينةِ المُنورةِ - بعدَ الهجرةِ بعدةِ شهورٍ - ومعه سائرُ قومه وقبيلتهِ، شاهرينَ إسلامَهُمُ، ومُعلنينَ انضمامَهُمُ إلى قافلةِ النُّورِ والإيمانِ والتَّوحيدِ، وتبعَهُمُ قبيلةُ «أسلم» شاهرةً إسلامها على يديه أيضاً، فهدى اللهُ بهِ أُمَّةً بعدَ أُمَّةٍ.

وهو بعدَ ذلكِ . . . رجلٌ لا ينامُ على ضميمٍ، ولا تلينُ له قناةٌ وهو يَجهرُ بالحقِّ،

ولا يَسْكُتُ عَنْ خَطَاٍ أَوْ انْحِرَافٍ يَرَاهُ أَمَامَهُ وَلَوْ كَلَّفَهُ الْأَمْرُ حَيَاتَهُ، أَوْ أَدَّى إِلَى تَشْرُدِهِ وَنَفِيهِ إِلَى الْجِبَالِ وَالْوُدْيَانِ الْبَعِيدَةِ، أَوْ إِلَى فَيَافِي الصَّحْرَاءِ الْمَوْحِشَةِ.

فَمَنْ هُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ «أَبُو ذَرِّ الْغَفَارِيِّ»، وَكَيْفَ أَسْلَمَ، وَمَا هِيَ أَهْمُ أَفْكَارِهِ الْإِصْلَاحِيَّةِ الَّتِي نَادَى بِهَا وَوَقَفَ عَلَيْهَا حَيَاتُهُ؟



هُوَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ أَبُو ذَرِّ جَنْدُبِ بْنِ جَنَادَةَ بْنِ قَيْسِ الْغَفَارِيِّ، نَسَبَةٌ إِلَى قَبِيلَتِهِ «غَفَارًا».

وُلِدَ وَعَاشَ بَيْنَ قَوْمِهِ فِي مِضَارِبِ قَبِيلَتِهِ «غَفَارًا» الَّتِي كَانَتْ تَقْطُنُ فِي إِحْدَى الْبَوَادِي الْمَشْرِفَةِ عَلَى الطَّرِيقِ التِّجَارِيَّةِ الْمُؤَدِيَةِ إِلَى أُمَّ الْقُرَى «مَكَّةَ» حَفِظَهَا اللَّهُ، وَكَانَتْ قَبِيلَةُ «غَفَارًا» مَشْهُورَةً بِالسُّطُوِّ وَالسَّلْبِ وَالتَّهَبِ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ هَذَا دَيْدَنَهَا وَمَعَاشَهَا.

وَكَثِيرًا مَا كَانَ «أَبُو ذَرِّ» يَنْتَقِدُ تَصَرُّفَاتِ قَوْمِهِ وَعَمَلَهُمْ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّكْسِبِ الْمَشْرُوعِ، وَمُزَاوَلَةِ الْأَعْمَالِ وَالْمِهَنِ الشَّرِيفَةِ بَدَلًا مِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى الْمُسَافِرِينَ الْأَمْنِينَ، فَكَانَ قَوْمُهُ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يُلْقُونَ بِالْأَلَمِ يَقُولُ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانُوا يَعْتَبِرُونَهُ مِنْ أَكَابِرِهِمْ وَفُضْلَانِهِمْ، وَيُؤَثِّرُونَهُ بِقَدْرِ مِنَ الْوَقَارِ وَالِاحْتِرَامِ.

وَعِنْدَمَا تَنَاهَى إِلَى سَمْعِهِ خَبْرُ بَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ، تَطَلَّعَ بِشَغْفٍ إِلَى أَرْضِ مَبْعَثِ النَّوْرِ، وَهَامَتْ نَفْسُهُ لِلِقَاءِ النَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، فَخَرَجَ مُعَلِنًا فِي قَوْمِهِ أَنَّهُ يَقْصِدُ مَكَّةَ لِلِقَاءِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِلْإِطْلَاقِ عَلَى أَمْرِ الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، وَلِلْوَهْلَةِ الْأُولَى مِنْ

لِقَائِهِ الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ أَشْهَرَ «أَبُو ذَرٍّ» إِسْلَامَهُ، وَمَلَأَتْ كَلِمَاتُ الرَّسُولِ الْهَادِيَاتُ عَلَيْهِ أَقْطَارَ نَفْسِهِ، وَكَانَتْ بَلَسْمًا شَافِيًا لَهُ مِنْ عَنَائِهِ الطَّوِيلِ وَهُوَ يَبْحَثُ عَنِ الدِّينِ الْحَقِّ، وَكَانَ تَرْتِيبُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ الْخَامِسَ أَوْ السَّادِسَ.

وَلِأَنَّ «أَبَا ذَرٍّ» رَجُلٌ خُلِقَ لِیْتَمَرَّدَ عَلَى الْبَاطِلِ أَيْنَمَا كَانَ، خَرَجَ مُعَلِنًا إِسْلَامَهُ أَمَامَ نَوَادِي قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ، فَتَمَالَأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ مُجْتَمِعِينَ وَانْهَلَوْا عَلَيْهِ ضَرْبًا وَأَذَى، وَكَادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تُتْلَقِيَ بِتِجَارَتِهَا إِلَى التَّهْلُكَةِ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُمْ «الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَنْقَذَ الرَّجُلَ الْغَفَارِيَّ الضَّيْفَ الْقَادِمَ إِلَى مَكَّةَ كَمَا تُسْتَنْقَذُ الشَّاةُ مِنْ أَنْيَابِ الْوَحْشِ، وَقَالَ لَهُمْ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنْتُمْ تُجَارُّ، وَطَرِيفُكُمْ إِلَى غَفَارٍ، وَهَذَا الرَّجُلُ مِنْ رِجَالِهَا، إِنْ يُحْرَضُ قَوْمُهُ عَلَيْكُمْ، يَقْطَعُوا عَلَى قَوَافِلِكُمُ الطَّرِيقَ». فَلَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنْ إِخْلَاءِ سَبِيلِهِ.

لَكِنَّ «أَبَا ذَرٍّ» بِطَبِيعَتِهِ الْمُتَمَرِّدَةَ، وَبِشَكِيمَتِهِ وَجَسَارَتِهِ الَّتِي لَا تَلِينُ أَمَامَ الْبَاطِلِ، حَمَلَ رِسَالَتَهُ فِي الدَّعْوَةِ وَالْإِصْلَاحِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ إِسْلَامِهِ. فَبَيْنَمَا كَانَ يَمْشِي فِي فَنَاءِ الْكَعْبَةِ، شَاهِدًا امْرَأَتَيْنِ مِنَ الْعَرَبِ تَطُوفَانِ بِالصَّنَمِينَ «أَسَافَ» وَ«نَائِلَةَ»، فَدَنَا مِنْهُمَا وَسَفَّهُ أَحْلَامَهُمَا، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمَا دَعْوَتَهُمَا لِصَنَمِينَ مِنَ الْحِجَارَةِ لَا يَسْمَعَانِ وَلَا يَعْيَانِ دُعَاءَهُمَا، وَذَكَرَهُمَا بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ فَتَصْرَحُ الْمَرَاتَانِ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْقُرَشِيُّونَ وَيَنْهَلُونَ عَلَيْهِ ضَرْبًا مِنْ جَدِيدٍ، وَمَا أَنْقَذَهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سِوَى فِطْنَتِهِمْ لِمَا سَيَحِلُّ بِتِجَارَتِهِمْ لَوْ لَقِيَ الرَّجُلُ حَتْفَهُ فِي حَرَمِهِمْ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَانْطَلَقَ «أَبُو ذَرٍّ» إِلَى قَوْمِهِ مُودِّعًا الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ، وَمُتَّخِذًا أَمَامَهُ عَهْدًا بِدَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَلَسَوْفَ يَأْتِيهِ بِهِمْ جَمِيعًا مُؤْمِنِينَ قَانِعِينَ بِدَعْوَتِهِ، فَلَا يَمْلِكُ الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ إِلَّا أَنْ

يُبَارِكُ لَهُ إِيمَانُهُ، وَيَقُولُ لَهُ قَبْلَ انْتِطَاعِهِ: «إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»، ثُمَّ يَسْكُتُ التَّارِيخُ عَنْ «أَبِي ذَرٍّ» عِدَّةَ سَنَوَاتٍ، ثُمَّ يَذْكُرُهُ بِقُوَّةٍ فِي دَارِ الْهَجْرَةِ الْمِيمُونَةِ.



هَا هِيَ قَبِيلَةُ «غَفَارٍ»، خَرَجَتْ عَنْ بَكْرَةَ أَبِيهَا، وَإِلَى جَانِبِهَا أُخْتُهَا قَبِيلَةُ «أَسْلَمَ» الَّتِي كَانَتْ تُنَافِسُهَا وَتُشَاطِرُهَا التَّفُؤْذَ بِالسَّطْوِ عَلَى طَرِيقِ التَّجَارَةِ قَادِمَتَيْنِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَيَتَقَدَّمُهُمَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ، وَالِدَّاعِيَةُ الْمُصْلِحُ الْمُتَمَرِّدُ «أَبُو ذَرٍّ الْغَفَارِيُّ»، حَيْثُ هَدَى اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ كِلْتَا الْقَبِيلَتَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ الرَّسُولُ الْأَكْرَمُ يَرَى الْجَمْعَ الْمُبَارَكِ، حَتَّى تَهَلَّلَ وَجْهُهُ الشَّرِيفُ بِالْفَرَحِ وَامْتَلَأَتْ نَفْسُهُ سُرُورًا وَحُبُورًا، وَبَارَكَ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ عَمَلُ «أَبِي ذَرٍّ»، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَبِيلَةِ غَفَارٍ وَقَالَ: «غَفَارُ، غَفَرَ اللَّهُ لَهَا» ثُمَّ نَظَرَ إِلَى قَبِيلَةِ أَسْلَمَ وَقَالَ: «أَسْلَمُ، سَالَمَهَا اللَّهُ»، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى «أَبِي ذَرٍّ» هَذَا الدَّاعِيَةِ الرَّائِعِ، الَّذِي وَفَى بِعَهْدِهِ وَأَتَى بِقَوْمِهِ جَمِيعًا مُسْلِمِينَ، وَقَالَ فِيهِ رَأْيُهُ الَّذِي سَتَرَدَّدُهُ الْأَجْيَالُ وَالْقُرُونُ حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا: «مَا أَقَلَّتْ الْغِبْرَاءُ، وَمَا أَظَلَّتْ الْخِضْرَاءُ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ».

فَهَذَا «أَبُو ذَرٍّ» رَجُلُ الصِّدْقِ، الْجَسُورُ فِي قَوْلِ الْحَقِّ وَتَسْفِيهِ الْبَاطِلِ، يُدْرِكُ الرَّسُولُ ﷺ بِبَصِيرَتِهِ الثَّاقِبَةِ وَالنَّافِذَةِ بِالْغَيْبِ مَا سَيَلْقَاهُ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ مِنْ أَهْوَالٍ وَمَتَاعِبَ وَهُوَ يَصْدَحُ بِالْحَقِّ، وَلَا سِيَّمًا عِنْدَمَا سَيَحِيدُ حُكَّامُ الْأُمَّةِ وَأُمَرَاؤُهَا رَوِيدًا رَوِيدًا عَنِ الْحَقِّ، وَسَيَتَزَحَّزِحُونَ قَلِيلًا قَلِيلًا عَنِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ فِي تَوَازِيْعِ الثَّرْوَةِ، وَسَيَمِيلُونَ كُلُّ الْمِيلِ أَوْ بَعْضُهُ إِلَى الْجَوْرِ وَالْحَيْفِ، وَسَتَسْتَيْقِظُ بَيْنَ جِوَانِحِهِمْ نَوَازِعُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ، وَسَيُؤَثِّرُونَهَا

على صلة الإيمان، وأخوة الدين. عندئذ سيفف «أبو ذر» جاهراً بالحق، مُندداً بالباطل، لا يخشى في الله لومة لائم، فيوصيه الرسول ﷺ بالصبر والأناة، وبالتزام سبيل الحكمة والموعظة الحسنة، والبعد عن المواجهة الصارخة والمسلحة، حفاظاً على حياته، وعلى وحدة الأمة، ولأنه سيكون وحده، وحده فقط.

وهنا يسأله الرسول ﷺ: «يا أبا ذر، كيف أنت إذا أدركت أمراء يستأثرون بالفيء؟» فأجاب قائلاً: إذا، والذي بعثك بالحق، لأضربن بسيفي! فقال له الرسول ﷺ: «أفلا أدلك على خير من ذلك؟ اصبر حتى تلقاني».

ويزداد الرجل الصالح ألقاً وإيماناً بقرب حبيبه ونبيه، ويدرك الرسول الأكرم يعلم النبوة أن هذا الرجل الصالح سيكون له شأن، وأي شأن في التاريخ! وسيكون له لقاء مع القدر.

فذات يوم يتخلف عن الركب النبوي في إحدى الغزوات لبطء ناقته في السير، فيظن بعض الأصحاب الكرام، أن «أبا ذر» تخلف أو تقاعس عن الغزو، وفي اليوم التالي أناخ الركب ليسترىحوا من وعناء المسير، وبينما هم كذلك إذ لاح شبح رجل قادم في الأفق وراء السراب، وعلى الفور قال النبي ﷺ: «كُنْ أبا ذر».

ولما فصلت به العير، أدرك النبي ﷺ أنه حقاً «أبو ذر»، فتبسّم ابتسامة حانية وآسية، وقال فيه كلمته المشهورة: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، وما يبرح الرسول الأكرم عن أفراد «أبي ذر» بالوصية قبيل موته.

يَقُولُ «أَبُو ذَرٍّ» رَاوِيًا: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِسَبْعٍ: أَمْرِنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالذُّنُوفِ مِنْهُمْ، وَأَمْرِنِي أَنْ أَنْظَرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَلَا أَنْظَرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَمْرِنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا، وَأَمْرِنِي أَنْ أَصَلَ الرَّحِمَ، وَأَمْرِنِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَمْرِنِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَمْرِنِي أَنْ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

وَقَدْ مَثَلَتْ هَذِهِ الْمَبَادِئُ وَالْقِيَمُ جَوْهَرَ الرِّسَالَةِ الْإِصْلَاحِيَّةِ الَّتِي حَمَلَهَا «أَبُو ذَرٍّ» عَلَى عَاتِقِهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَصَدَقَ أَدَاؤُهُ لَهَا بِكُلِّ إِيمَانٍ وَإِخْلَاصٍ.



بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ، قَضَى «أَبُو ذَرٍّ» رِدْحًا مِنْ حَيَاتِهِ، وَهُوَ يَنْعَمُ بِالْأَمْنِ وَالْهُدُوءِ وَالِاسْتِقْرَارِ، لَا يَرَى مَا يَسُوءُهُ، أَوْ يُعَكِّرُ لَهُ صَفْوَةَ إِيمَانِهِ، فِي ظِلِّ خِلَافَةِ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، إِذْ كَانَتْ خِلَافَتُهُمَا تَقُومُ عَلَى الزُّهْدِ وَالتَّقَشُّفِ وَالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ، وَهَذَا مَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ «أَبُو ذَرٍّ» وَيَحْلُمُ بِهِ.

وَلَكِنْ عِنْدَمَا دَارَ الزَّمَنُ دَوْرَتَهُ، وَانْقَضَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى «عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ» وَقَعَتْ بَعْضُ الْأَخْطَاءِ فِي إِدَارَةِ الْحُكْمِ، وَتَوَزَّعَتِ الثَّرْوَةُ، وَتَسَاهَلَتِ الْخَلِيفَةُ فِي تَعْيِينِ الْعُمَّالِ وَالْوَلَاةِ عَلَى الْأَمْصَارِ حَسَبَ إِشَارَةِ ذَوِي قَرَابَتِهِ، وَاسْتَعْلَلَتْ بَعْضُ ذَوِي الْعَصَبِيَّاتِ مِنْ قَرَابَةِ الْخَلِيفَةِ مَرْكَزَهُ فِي الْحُكْمِ فِي جَمْعِ الثَّرْوَةِ، وَاكْتِنَازِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَعَمَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْاسْتِثْنَاءِ بِالْفِيءِ دُونَ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ طَبَقًا لِمَا حَدَّثَ بِهِ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ ﷺ أَبَا ذَرٍّ مِنْ قَبْلُ.

إِذَا هَذَا سَلَّ «أَبُو ذَرٍّ» لِسَانَهُ الصَّادِقَ الْبِتَّارَ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجَدِّ

يَطُوفُ فِي الْأَصْقَاعِ، مُذَكَّرًا ذَوِي الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ - وَالْعَهْدُ بِهِ قَرِيبٌ - مِنْ تَعَالِيمِ تَحْرِمِ اِكْتِنَازِ الْمَالِ. وَتَنْهَى عَنِ الْجَوْرِ فِي تَوْزِيعِ الثَّرْوَةِ، وَتَدْعُو إِلَى الْمَسَاوَاةِ فِي الْعَطَاءِ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمَحْكُومِ.

وَعِنْدَمَا ضَاقَ الْخَلِيفَةُ «عُثْمَانُ» ذَرْعًا مِنْ وَجُودِهِ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ اِنْتِقَادُهُ الشَّدِيدُ لِطَرِيقَةِ الْحُكْمِ، وَعَدَمِ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْعَطَاءِ، وَإِنْكَارُهُ اللَّادِعُ لِلثَّرَاءِ الْفَاحِشِ الَّذِي حَصَلَهُ الْوِلَاةُ وَكِبَارُ مَوْظَفِي الدَّوْلَةِ، أَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الشَّامِ لِغَايَةٍ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنَّ «أَبَا ذَرٍّ» وَجَدَهَا فُرْصَةً لِتَأْيِيدِ رِسَالَتِهِ الْإِصْلَاحِيَّةِ بِصَدَقٍ وَأَمَانَةٍ، وَخَاصَّةً أَنَّ الْوَالِي الشَّامِ «مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ» قَدْ تَطَاوَلَ فِي الْبُنْيَانِ وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ الْقُصُورَ وَالضِّيَاعَ، وَيَبْدُخُ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى تَرْفِهِ، وَعَلَى وَجْهِ الْقَوْمِ لِتَأْلِيفِ قُلُوبِهِمْ حَوْلَهُ، وَتَقْوِيَةِ سُلْطَانِهِ عَلَى حِسَابِ حَقُوقِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي يَهْدُرُهَا مِنْ غَيْرِ مُبَالَاهٍ.

وَفِي قَصْرِ الْخِلَافَةِ فِي دِمَشْقَ يُحَاجِّجُ «أَبُو ذَرٍّ» الْوَالِي الْبَادِخَ وَالْمُتَبَجِّحَ بِقُوَّتِهِ وَمَجْدِهِ بِالْحَجَجِ السَّاطِعَةِ عَلَى أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ يُنَافِي سُنْنَ الْإِسْلَامِ، وَتَعَالِيمَ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ، فَيَقُولُ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَى الشَّامِ وَلَا يَمْلِكُونَ فِي الدُّنْيَا سِوَى بِيوتِهِمُ الَّتِي خَلَفُوهَا وَرَاءَهُمْ فِي مَكَّةَ وَصَارَ عِنْدَهُمُ الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ وَالْقُصُورُ وَالضِّيَاعُ: أَفَأَنْتُمْ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَهُوَ بَيْنَكُمْ؟

ثُمَّ يُجِيبُ عَنْهُمْ قَائِلًا: نَعَمْ.. أَنْتُمْ الَّذِينَ نَزَلَ فِيكُمْ الْقُرْآنُ، وَشَهِدْتُمْ مَعَ الرَّسُولِ الْمَشَاهِدَ، أَوْ مَا تَجِدُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا

يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿التوبة: 34﴾، فَيَقْطَعُ مَعَاوِيَةُ حَدِيثَهُ نَاكِرًا عَلَيْهِ قَوْلُهُ:

لَقَدْ أَنْزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِ أَبُو ذَرٍّ بِكُلِّ إِصْرَارٍ وَشَكِيمَةٍ: لا . . . بَلْ نَزَلَتْ لَنَا وَلَهُمْ.



وَيَتَابِعُ «أَبُو ذَرٍّ» أَدَاءَ رِسَالَتِهِ الْإِصْلَاحِيَّةِ بِالرَّفْقِ وَاللِّينِ عَمَلًا بِنَصِيحَةِ رَسُولِهِ ﷺ لَهُ، تَحْتَ شَعَارِ: «بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِمَكَائِدِ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» وَيَسْتَجِيبُ الْكَثِيرُ مِنْ وَجْهَاءِ أَهْلِ الشَّامِ لِدَعْوَتِهِ الْإِصْلَاحِيَّةِ، فَيَتَرَاخُونَ عَنْ غَشِيَانِ مَجْلِسِ مَعَاوِيَةَ، فَيَبْرُقُ مَعَاوِيَةُ إِلَى الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ يَقُولُ لَهُ: «إِنَّ أَبَا ذَرٍّ قَدْ أَفْسَدَ النَّاسَ بِالشَّامِ»، فَيَكْتُبُ الْخَلِيفَةُ بِدَوْرِهِ إِلَى أَبِي ذَرٍّ يَسْتَدْعِيهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمَّا حَضَرَ إِلَيْهِ جَرَى بَيْنَهُمَا حِوَارٌ طَوِيلٌ، وَنِقَاشٌ حَادٌّ عَرَضَ خِلَالَهُ الْخَلِيفَةُ عَلَى الرَّجُلِ الصَّالِحِ الْمُصْلِحِ الْإِقَامَةَ إِلَى جَانِبِهِ تَغْدُو عَلَيْهِ اللَّقَاحُ وَتَرَوْحُ، وَلَكِنَّ أَبَا ذَرٍّ يَأْبَى أَنْ يَرْتَعَ فِي النَّعِيمِ، وَهُنَاكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ هُمْ جَوَعَى، وَيَقُولُ لِلْخَلِيفَةِ بِكُلِّ شُمُوحٍ وَإِبَاءٍ: «لا حَاجَةَ لِي فِي دُنْيَاكُمْ»، فَيَأْمُرُهُ الْخَلِيفَةُ بِالْخُرُوجِ إِلَى أَرْضِ الرَّبْدَةِ النَّائِيَةِ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَيُحَرِّمُ عَلَى النَّاسِ التَّحَدُّثَ إِلَيْهِ، لَكِنَّ عَلِيًّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَخْرُجُ مُودِّعًا صَاحِبَهُ قُبَيْلَ انْطِلَاقِهِ إِلَى أَرْضِ الْمَنْفَى، وَيَقُولُ فِي حَقِّهِ كَلِمَاتِهِ الرَّائِعَةَ، وَيَطْبَعُ عَلَى جَبِينِ الزَّمَنِ وَسَامَ الشَّرْفِ وَالْإِسْتِحْقَاقِ مِنَ الدَّرَجَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّذِي نَالَهُ أَبُو ذَرٍّ عَنْ جِدَارَةِ وَإِسْتِحْقَاقٍ: «لَمْ يَبْقَ الْيَوْمَ أَحَدٌ لَا يُبَالِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لِأَيِّمْ غَيْرُ أَبِي ذَرٍّ».

وَيَخْرُجُ أَبُو ذَرٍّ إِلَى أَرْضِ الْمَنْقَى، لِيُصَافِحَ التَّارِيخَ، وَلِيَدْنُو مِنَ الْآخِرَةِ وَهُوَ سَعِيدُ
النَّفْسِ، مُغْتَبِطُ الْقَلْبِ، غَيْرُ سَاخِطٍ عَلَى قَدْرِ، وَلَا مُتَبَرِّمٍ بِقَضَاءِ، وَلَا حَاقِدٍ أَوْ نَاقِمٍ عَلَى
أَحَدٍ.

وَفِي أَرْضِ الرَّبَذَةِ يَمُوتُ أَبُو ذَرٍّ وَحَدَهُ، وَتَتَحَقَّقُ فِيهِ نَبَأُ الرَّسُولِ ﷺ الْآخَرَى، حَيْثُ
يَشْهَدُ مَوْتَهُ عَصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَانُوا يَمْرُونُ فِي الطَّرِيقِ، فَيَعَثْرُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ
الْآخِرَةَ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ رَفِيقُ دَرَبِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَالْإِصْلَاحِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَانَ بِاسْتِطَاعَةِ أَبِي ذَرٍّ أَنْ يَقُودَ ثُورَةً عَارِمَةً فِي الشَّامِ أَوْ فِي الْمَدِينَةِ حَيْثُ التَّفَّ حَوْلَهُ
النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ مِنْهُ إِشَارَةً أَوْ أَمْرًا لِقَلْبِ الْأُمُورِ رَأْسًا عَلَى عَقْبِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَنْهَاهُمْ عَنْ
ذَلِكَ، وَيَأْبَى الْخُرُوجَ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ شَاهِرًا سَيْفَهُ، وَكَانَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّ اخْتِلَافَ الرَّأْيِ
لَا يُفْسِدُ وَدَّ الْقَلْبِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ يَحْضُهُمْ - عَمَلًا بِوَصِيَّةِ الْمُصْطَفَى ﷺ لَهُ - عَلَى
الصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ، حَتَّى يُحَدِّثَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، أَوْ يَلْقُوا وَجَهَ رَبِّهِمُ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ
خَافِيَةٌ.



الأسئلة والمناقشة

- 1 - إلى ماذا دعا أبو ذرّ الغفاريُّ؟
- 2 - على ماذا تَمَرَّدَ أبو ذرّ في الجَاهِلِيَّةِ؟
- 3 - أين كانت تَقطنُ قبيلةُ غفارَ، وبماذا اشتهرت؟
- 4 - إلى ماذا كان يدعو أبو ذرّ قومه قبل إسلامه؟
- 5 - لماذا أخلت قُريشُ سبيلَ أبي ذرّ؟
- 6 - ماذا قال الرَّسُولُ ﷺ لقبيلةِ غفارَ ولقبيلةِ أسلمَ؟
- 7 - بماذا أوصى الرَّسُولُ الكريمُ ﷺ أبا ذرّ؟
- 8 - ماذا كان أبو ذرّ يقولُ للنَّاسِ الَّذِينَ يَلْتَمُونَ حَوْلَهُ وَيَدْعُونَهُ لِلثَّوْرَةِ وَالْإِنْقِلَابِ عَلَى الْحُكَّامِ؟

